حركة التشيع في المغرب ومظاهرها

● الدكتور عبد اللطيف السعداني
(فاس ـ المملكة المغربية)

بحلول شهر محرم من كل عام يتغير وجه الحياة في المغرب حيث يدع الناس ايام الدعة والاستكانة الى الاهواء ويتبدلون بها عودة الى محاسبة النفس، فيستيقظ الضمير فيهم وتعود الذكرى الى حياتهم الاسلامية لتنير فيهم واقعهم وما هم عليه وتحيى في ايمانهم المعنى الخفي للحقيقة التي انتقلت من الوحي النبوي في آل بيته وابناء عترته. تلك هي ذكرى عاشوراء، واستشهاد سيدنا الحسين.

ففي هذا الشهر نرى الناس في جميع مدن المغرب في هرج ومرج لايمكن ان يوصف الا بأن حدثا عظيما قد حل بهم، واي حدث اعظم من الفتنة الكبرى التي ادت الى انهيار ذلك الطود العظيم حفيد رسول الله ﷺ. فاذا هم منصرفون الى القيام بأعمال وتصرفات امتزجت اليوم بكلهم، وحلت من السنة محلاً مرموقا مترقبا ولكن الزمن اكسب هذه المناسبة طابع العادة حتى لايكاد الا القليل يدرك مغزاها الحقيقي.

غير ان الشيء الذي تعارف عليه اهل المغرب ونظروا اليه نظرة احترام وتقديس هو ان شهر المحرم شهر العزاء يهيمن فيه الاسى والحزن العميق على القلوب، فلا يباح مطلقا التجمل حتى ولا غسل بيوت او ثياب ولاتزف عروس ولاتدق طبول او تسمع مزامير بل ان الناس ليلبسون في هذه المناسبة منذ اليوم الاول من المحرم الى العاشر منه اما باقي الشرفاء فيتموه الى آخر الشهر، ويطبخ في اليوم المشهود الاكل للتصدق به، وقد جعلت طبقة التجار هذه المناسبة لبذل المال فكان هذا اليوم هو يوم الزكاة في السنة لكأنما يرمز ذلك الى محاسبة الاعمال.

اما الآخرون فيمسكون عن الاكل في هذا اليوم احتسابا لله. وما ينفك الحزن غالبا على احوالهم حتى ليعتقدون انه غالبا ما يصادف ان يبكي الانسان في هذا اليوم، يوم عاشوراء، بل لتجدهم سعداء بتلك الدموع الغالية التي تذرف تعبيرا عن الالم لفقدان شهيد الحق. واما الاطفال فلهم من هذه الذكرى اللعب ونلاحظ من بينها قلل الماء الصغيرة التي تهدى اليهم من ذويهم، وذلك رمز للظمأ الذي مات به شهيد الذكرى. واكبر ما يستوقف الملاحظ هو بقايا مشاهد المراثي التمثيلية بالكراكز التي تقام كل سنة في مدينة مكناس وفاس ومراكش.

فكيف استقرت هذه العادات في الحياة المغربية؟ والى اي حد تغلغلت في عقيدة المغاربة؟ ان للمغاربة منذ بداية تاريخهم الاسلامي حبّ شديد وتعلق كبير بآل البيت الاطهار وليس ادل على ذلك من مؤازرتهم لهم حيث وجدوا عندهم الملاذ الاخير بعد ان حوربوا في بلادهم ويئسوا من البقاء بها، فالتجؤوا الى بلاد المغرب الاقصى وبين ظهراني المغاربة الدولة الهاشمية الادريسية، وهي اول دولة شيعية ـ وهي الدولة الفاطمية ـ نشأت وترعرعت في بلاد المغرب بتونس، وكان هذا الامر نفسه هو الدعامة الاساسية لتكوين الدولة السعدية

والدولة العلوية بعد ذلك في المغرب. وهذا فضل للمغاربة سجلوه في تاريخ العقيدة يقضي الانصاف ان نذكره لهم هنا.

بعدما انجاب الظلام عن موت الامام محمد (النفس الذكية) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، تفرق ابناء عبدالله في الارض شذر مذر، وولي كل وجهة يطلب النجاة بالامانة التي يحملها بين جوانبه، ويبحث عن المكان الجدير بها ليبث السر ويذيع الامر.. وسقط الاخوة الواحد تلو الآخر في ميدان الجهاد من اجل الدعوة في مختلف بقاع العالم الاسلامي.

وكان ادريس احد هؤلاء الاخوة قد يمم وجهه شطر بلاد المغرب يرافقه ويرعاه مولاه راشد، وكتبت له الاقدار النجاة من الاخطار التي كانت تترصد آل البيت حيثما كانوا والتي كانت ترافقه وهو ينتقل من الحجاز الى مصر ومنها الى برقة والقيروان ثم طنجة، واخيرا استقر به المطاف غرة ربيع الاول سنة ١٧٢هـ في مدينة وليلي. وبذلك خط في تاريخ الشرفاء العلويين عهد جديد يبشر بالخير..

وما ان عرف صاحب وليلي عبد الحميد الاوربي نسب المولى ادريس الشريف حتى رحب به وانزله المكان الجدير به وسمع به اهالي قبائل اوربة البربر فهرعوا يسلمون اليه قيادهم شاكرين لله هذه النعمة معبرين عن تلك بقولهم «الحمد لله الذي اتانا به وشرفنا بجواره فهو سيدنا ونحن عبيده نموت بين يديه».

فأخذ منهم عبد الحميد البيعة للمولى ادريس.

كان هدف المولى ادريس منذ اللحظة الاولى هو نشر الاسلام على نطاق واسع بين مختلف قبائل البربر المغربية اذ ان اكثرهم كان لايزال يدين باليهودية والنصرانية. وعاود هذه الحملة التطهيرية سنة ١٧٣هـ واردفها باخرى حتى اسلمت بلاد تامسنا وتادلا، ممهدا لارساء اسس عودته، ولكنه لم يستمر طويلا في القيام بالامر فقد عالجته القوى المترصدة لآل البيت في بغداد بعد ان قضت على كل اثر لهم في الشرق، فقتل ولما يمر على حكمه سوى زمن يسير. ثم ما لبث ان بدأت النكبات من جديد، فقتل مولاه راشد الذي اخلص للدعوة لآل البيت وتفانى في خدمة المولى ادريس وكان له اكبر الاثر في تكوين هذه الدولة الفتية. وركزت امور هذه الحركة الاسلامية المباركة في بلاد المغرب قليلا. غير ان البربر استمروا في الوفاء للعهد الذي بذلوه الى ان شب ادريس الثاني الابن الوحيد الذي تركه مؤسس دولة الادارسة من زوجته البربرية كنزة. بلغ الحادية عشرة، فتسلم زمام الامور وتابع القيام بهذه المسؤولية.. فبرزت المرحلة الثانية من مسيرة الدولة الادريسية وما زال يوطد دعائمها، فكان مما عمد اليه واهتم يه قطع الصلة بين المغربين وبين الدولة العباسية[1] اولا استئصال الخوارج الصفرية من البلاد. وبهذا نرى انه خط الخطة التمهيدية الثانية وفسح الجو للدعوة القائمين بها. ومضى خلفاؤه من بعده في محاربة الخوارج كما فعل علي بن عمر بن ادريس ويحيى بن ادريس الذي قضى على الخارجي الثائر بفاس عبد الرزاق الفهري

(١) تاريخ ابن خلدون. ج١ ص٢٧.

الصفري[١] ولكن اعقاب المولى ادريس الثاني واجهوا في سبيل نشر دعوتهم والاعلان عنها عراقل كثيرة وصعاب جمة فقد كثرت الاضطرابات والقلاقل من كل جانب بعد ان وزعت المملكة بينهم، واستفاد المتربصون شرا والطامعون في احتلال البلاد. فالامويون في الاندلس يحاولون باصرار بسط نفوذهم على المغرب والسيطرة على دولته، ويستخدمون لذلك جميع الوسائل ليضطروا حكامه الى الخضوع حتى انهم سلطوا عليهم احد المعادين لآل البيت موسى ابن ابي العافية الذي كان يحقد عليهم اشد الحقد وأراد استئصالهم من المغرب نهائيا، وظل لهم بالمرصاد الى آخر ايامهم حتى أجلوا عن اوطانهم ورحلوا الى الاندلس.. الى جانب هذا كان على مسرح المغرب في المرحلة الحساسة لتكامل دولتهم نشوء الدولة الفاطمية بتونس ومزاحمتها لهم في تزعم هذه الحركة.

ومع ذلك فقد تخللت فترة الشرفاء الادارسة للمغرب اوقات اعلن فيها الحكم الشيعي الصريح ومذهبه حيث سمحت الفرصة بالبوح بعقيدتهم. ذلك أن هذه الدولة كانت تشهد على حدودها الشرقية مولد اول دولة شيعية هي الدولة الفاطمية بتونس، وسرعان ما تم الأمر لهذه الدولة وبدأت توسع رقعة سلطانها بالمغرب من جهة وتتطلع الى مصر من الجهة الاخرى ففي سنة ٣٠٥ هـ توجه مبعوث عبدالله مصالة بن حبوس المكناسي قائد عبيد الله المهدي الى المغرب ووصل الى فاس حاضرة الادارسة فحاصرها وكان اميرها يحيى ابن ادريس الادريسي الامير الذي ملك جميع بلاد المغرب وبلغت الدولة الادريسية في عهده اعلى مقام واصبحت الحال على وشك الاستقرار. فشدد الحصار الى ان صالحه هذا الامير بقبول طاعة عبيد الله الشيعي، فأبقاه على حكمه لفاس من قبل الفاطميين، وترك لموسى ابن ابي العافية حكم باقي البلاد المغربية وكان من الجائز ان تسير امور الادارسة والفاطميين على احسن ما يرام، وان ينمو هذا الاتجاه الجديد في العقيدة المغربية يآزر احدهما الآخر ويعينه لو لم يدب الحقد والحسد الى ابن ابي العافية فيوغر صدر مصالة على يحيى الادريسي ويوقع بينهما وهو يظهر النصح للشيعة والاخلاص لهم والتمسك بدعوتهم. وهنا يتحول اهتمام الادارسة فينصرفون الى الانشغال بمبارزة العداء الذي يواجههم، وتتم المؤامرة فيعزل يحيى ولكن اهل فاس لايقبلون ريحان بديله عليهم من قبل العبيديين، ثم لايلبث ان يثور الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن ادريس سنة ٣١٠ هـ ولكنه يلقى حتفه بسبب خيانة عامل فاس سنة ٣١٣ هـ . وهنا ينتهي عهد الادارسة بفاس حيث يعتصمون بحجر النسر بالريف، ذلك المعقل الذ بناه اخو الحسن الحجام ابراهيم سنة ٣١٧ هـ وظل ابن ابي العافية متحكما في المغرب من طرف العبيديين الى سنة ٣٢٠ هـ حيث خلع طاعتهم ودعا للامويين فحاربه الفاطميون، وخرج اذ ذاك الادارسة من حضنهم حجر النسر بعد ان ظلوا به اربعة اعوام، وانضموا اليهم في قتال موسى ابن ابي العافية حتى قضوا عليه.. ولكن البلاد بقيت مع ذلك في قبضة الامويين الى سنة ٣٢٣هـ حيث قدم ميسور الفتى الى المغرب من لدن ابي القاسم عبد الله المهدي على اثر وفاة والده، وحاصر مدينة فاس الى ان تمكن منها، وبقيت

(١) تاريخ الاسلام. الدكتور حسن ابراهيم حسن. ج١ ص١٦٣.

هذه المدينة تحت امرة الفاطميين حتى سنة ٣٣٥ هـ اي مدة ثمان عشرة سنة. فتولى الادارسة جميع البلاد قائمين بدعوة ابي القاسم الشيعي. ويظهر انه تم بذلك اجتماع هاتين الحركتين وبدا الانسجام بينهما.. فنجد لا ادارسة في هذه المرحلة يظهرون تشيعهم ذاك للقاسم ابن محمد بن القاسم بن ادريس الثاني الملقب بكنون وقام بدعوة الشيعة[١].

غير ان القوة التي كانت تجاورهم من الشمال كانت تهددهم باستمرار فما ان توفى القاسم سنة ٣٣٧ هـ وتولى ابنه ابو العيش احمد بن القاسم حتى دعا الى الامويين وبايع لعبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ ـ ٣٧٧) ويمتاز هذا الامير بأنه كان يتوق الى الجهاد في بلاد الاندلس وبها مات سنة ٣٤٣ هـ، تلك البلاد التي كان لها فيما بعد شأن في تاريخ هذه الدعوة. فما لبث الفاطميون ان اعادوا الكرة سنة ٣٤٩ هـ وردوا الامور في المغرب الى نصابها. وبعد هذا ظهر آخر ملوك الادارسة وهو اخو ابو العيش، الحسن بن كنون مبايعا للعبيديين ثم للامويين «خوفا منهم لاحبا فيهم» كما يقول ابن ابي زرع في كتابه القرطاس[٢] الى ان دارت عليه الدائرة فابعد واهله عن المغرب، وانتهى الامر ان حاربهم وقتل وهو يحاربهم سنة ٣٧٥ هـ وبذلك انقرضت الدولة الادريسية وهي تصارع المعارك[٣].

لقد ملكت هذه الدولة العلوية الشريفة بلاد المغرب زهاء ٢٠٣ مائتين وثلاث سنين، وبسطت نفوذها من السوس الاقصى الى مدينة وهران. وبالرغم من هذه المدة الطويلة فانها لم تتمتع بالاستقرار الذي يمكنها خوض المعارك الفكرية والعقائدية التي كانت على اهبة القيام بها بعد المعارك السياسية[٤] فقد اصابتها هزات عنيفة من كل جانب، وقصرت عن الوصول الى مستوى منافسيها في الخلافة لـ: «ضعف سلطانهم وقلة مالهم»[٥]. على ان هناك في رأينا عاملان اساسيان اخريان كان من شأنهما ان لا يشجعا على ظهور التشيع بالمغرب، يجب ان يضافا الى ما تقدم. فبالرغم من ان المغرب قد عرف ظهور دولة المذهب الشيعي ومبادءه، فان ازدهار هذا المذهب وبلوغ الدولة الفاطمية شأوا كبيرا تم بعيدا عن البلاد المغربية في مصر، وقد كان هذا من الاهداف التي جعلت الفاطميين ينقلون دولتهم من المغرب الى مصر. كما ازدهر الفكر الشيعي في البلاد الشرقية مثل ايران، حيث كانت هذه البلاد مستعدة فكريا لقبول العقائد الشيعية والخوض فيها لما عرفته من قبل ذلك من فلسفات وعلوم ومعارف، كما انها كانت مستعدة روحيا لذلك بعدما عاشت الصراع السياسي الذي خاضه ائمة التشيع. وهذا كله لم يكن يتوفر في البلاد المغربية التي كانت وما تزال عقيدتها الاسلامية بسيطة وايمانها بهذه العقيدة ساذجا.

وثاني السببين في عدم تمذهب الادارسة وغيرهم من الاسر الشريفة التي حكمت

(١) الانيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس. ابن ابي زرع. ج١ ص١٢٧.

(٢) الانيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس. ابن ابي زرع. .ج١ ص١٣٨.

(٣) رغم زوال الدولة الادريسية فان المذهب الشيعي ظل رائجا في المغرب كله الى اواسط القرن الخامس الهجري كما يظهر من كلام صاحب الاستقصاء. ج١ ص١٣٨.

(٤) تاريخ الاسلام. الدكتور حسن ابراهيم حسن. ج٣ ص١٦٧.

(٥) الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى. الناصري. ج١ ص٢٠٥.

المغرب في دعوتهم لآل البيت هو ان جميع هؤلاء الشرفاء حسنيون يرجع نسبهم الى سيدنا الحسن بن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فلم تتجسم فيهم تلك العقيدة الشيعية التي ظهرت في اعقاب سيدنا الحسين رضي الله عنه الولد الثاني لسيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الذي يعد الامام بعد ابيه ومنه استمرت هذه الدعوة في اعقابه.

ومهما يكن من امر فقد بذل المغاربة للادارسة الولاء ودانوا لهم بالطاعة الكاملة اخلاصا منهم في محبة آل البيت واوضح دليل على هذا التفاني في الاخلاص لهم أنهم كانوا دائما معهم يؤيدونهم في كل حالاتهم، في متابعتهم للمروانيين، وفي مبايعتهم للعبيديين.

كاد اثر دولة الادارسة ينمحي، او هكذا ظن اعداؤهم الامويون بعد ان اجلوهم عن معاقلهم بالريف الذي كان يدين لهم بالحب، وجبال غمارة التي ظلت تنقاد لهم وتعظمهم[١] وبعد ابعادهم عن بلادهم حتى لم يبق منهم بالعدوة رئيس[٢] ونفيهم الى الاندلس. غير ان التشيع الموروث لاولاد ادريس[٣] خلد هذه الدولة الى الابد في نفوس المغاربة والبربر عامة، فلم تخب دولتهم ولازال امرها بل سرعان ما انتقلت الى الاندلس لتزيل دولة بني امية وتخلفها، وكانت حركة اولائك النازحين الى هذه البلاد من تلك الاسرة الادريسية الذين استقروا سنة ٣٦٤ هـ بقرطبة تحت رعاية ملكها الحكم الاموي الرمز الاول لهذا الانتقال. كما انتقلت مع البربر الفاتحين للاندلس في ذلك العهد الذين حفظوا للشرفاء عهد المحبة والولاء فما ان ظهر احفاد للادارسة على مسرح الحياة السياسية بالاندلس حتى التفوا حولهم ودعوا لهم.. كان ذلك عندما عبر اثنان من اعقاب الادارسة الى بلاد الاندلس في خدمة سليمان بن الحكم الاموي وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر ادريس الثاني بن ادريس الاول.

وكان اول امرهما ومبدؤ نشأة الدولة في أسرتهما ان وليا قائدين على المغاربة في الاندلس، ثم وكل سليمان القاسم امور الجزيرة الخضراء، وعليا وهو الاصغر أمور سبتة وطنجة. وقد كانت لقبائل صنهاجة[٤] وزناته يفرن بتاكرونة[٥] وبرغواطة[٦] اليد البيضاء في مدهم بالمساعدة وشد أزرهم حتى قال الشاعر ابو عبد الله الرعيني في مدح القاسم:

ولما دعى الشيطان في الخيل حزبه ... واقبل حزب الله فوق خيوله

كتائب من صنهاجة وزناتة ... تضايقن في عرض الفضاء وطوله

ويكفي دليلا على هذه الصلة الوثيقة التي كانت تشد بين هذه الاسرة الهاشمية وبين برابرة

(١) نرى ذلك حتى في زمن متأخر عن هذا العهد في آخر الدولة الحمودية، فعندما طرد محمد المهدي اخاه السامي من الاندلس ذهب هذا الى المغرب ونزل بجبال غمارة. الكامل في التاريخ. ابن الاثير، ج٩ ص٢٧٢.

(٢) الانيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس. ابن ابي زرع. ج١ ص١٣٨.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ج٤ ص٣٣٠. ابن خلدون.

(٤) المعجب في تلخيص اخبار المغرب. عبد الواحد المراتشي. ص٣٨.

(٥) نزل ادريس بن يحيى الحمودي الملقب بالعالي في آخر ايامه عند بني يفون بتاكرونة. المعجب. ص٤١و٤٢.

(٦) اعتمد ادريس بن يحيى الحمودي في اول ايامه على البرغواطيين فولى مدينتي سبتة وطنجة رجلين من هذه القبيلة. المعجب. ص٤١.

المغرب، هي ان زوال ظلهم عن قرطبة يعني الى ما أخذه عليهم أهل هذه البلاد من ميلهم الى البربر[١].

ولم يخف بعض الناصحين لملك سليمان من البربر الموالين للامويين من تولية هذين العلويين الطالبيين[٢] اذ سيظل هذا الحق مطلوبا ما دام فيهم عرف ينبض. ولم يمض زمن يسير حتى بدت رايات الدعوة العلوية يقودها احد ذينك النازحين الحموديين الى الاندلس علي بن حمود سنة ٤٠٧ هـ، واستجابت الرغبة الدفينة في قلوب مواطنيهم الذين كانوا يسكنون قرطبة فسمى ذكرهم[٣]. ومنذ ذلك الحين تكونت هذه الدولة. أطلق البعض عليهم الحسنيون وسماهم البعض الآخر العلويون او العلويون الادارسة وسموهم الفاطميون، ومهما تكن التسمية فان هذه الدولة قامت لارجاع الحق المغصوب لآل البيت من أسرتهم، ونلاحظ ان الظروف كانت تفرض قيام من يدافع عن هذا المبدا اذ ان الشيعة كانوا يمرون باوقات عصيبة، فقد ساءت حالهم بتونس ولاقوا التقتيل والتعذيب، وقامت الفتن بين السنة والشيعة على اشدها في العراق بواسط[٤].

من ذلك نستبين الهدف الذي قصدت اليه هذه الدولة، وقد كان أمرين اساسيين:

اولهما مناهضة الحكم الاموي في الاندلس.

وثانيهما الدعوة للدولة العلوية وللمذهب الشيعي.

أما الهدف الاول فقد أصابت منه الكثير حتى ذكروا انهم كانوا سبب زوال الامويين من الاندلس والقضاء على دولتهم[٥] وأما الدعوة للدولة في آل البيت فانهم نجحوا في القيام بها الى حد بعيد فكونوا دولة بجميع مظاهرها وتلقبوا بالقاب الخلافة مثل «الناصر لدين الدولة» و«المأمون» و«المستنصر» و«المتأيد» وملكوا الجزيرة الخضراء وقرطبة واشبيلية وغرناطة والمرية وقرمونة ورندة واعمالها ومن مدن المغرب طنجة وسبتة. وخطب لهم في جميع هذه البلاد وضربت السكة باسمهم.

وأما تشيعهم فقد ظهر عليهم اثر لذلك ولكن المصادر التي بين ايدينا وهي مصادر في اغلبها تؤيد المذهب السني اكتفت بالقول بأنهم «تشيعوا ولم يظهروا ذلك ولاغيروا على الناس مذهبهم»[٦] ولن تعقب على ذلك ولاعلقت عليه مما يكاد يحس معه من الاشارات العابرة أنها أغفلت الحديث عن هذا الامر، وغضت الطرف عنه ولم تذكر الا ما اضطرت اليه اضطرارا عن نقل شعر لاحد شعراء الاندلس في هذه الفترة مثلا، اذ كان من اللازم الاشارة الى الشعر الشيعي وقد بلغ في هذا العصر شأوا عاليا. على اننا يجب ان لانغفل ما يكون قد ركن اليه دعاة هذه الدولة من ﴿السرية﴾ التي تحتمها الظروف القاسية التي تواجه كل عقيدة تحاول الظهور في

(١) الكامل في التاريخ. ابن الاثير. ج٩ ص٢٨٢.

(٢) اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام. ابن الخطيب السلماني. ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٣) الانيس المطرب بروض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس. ابن ابي زرع. ج١ ص١٤٣.

(٤) الكامل في التاريخ. ابن الاثير. ج٩ ص٢٩٥.

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر. ابن خلدون. ج٤ ص٢٢٨.

(٦) الكامل في التاريخ. ابن الاثير. ج٩ ص٢٧٤. والمعجب في تلخيص اخبار المغرب. المراكشي. ص ٣٠٠.

محيط جديد.

ومع ذلك نستطيع ان نتبين الجو الذي خلفه وصولهم الى الحكم وآمال الناس فيهم. يقول ابو عبد الله الرعيني الاعمى من قصيدة في القاسم بن حمود يذكر فيها خيران الصقلبي وقتل المرتضى المرواني وفتح غرناطة:

لـك الخيـر خيـران مضـى لسبيلـه ... واصبـح ملـك الله فـي ابـن رسـولـه
وفـرق جمـع الكفـر واجتمـع الـورى ... علـي ابـن حبيـب الله بعـد خليلـه
وقـام لـواء النصـر فـوق ممنـع ... مـن العـز جبـريـل امـام رعيلـه
واشـرقـت الـدنيـا بنـور خليقـة ... بـه لاح بـدر الحـق بعـد افـولـه

على ان أهم ما كان الناس يمجدون به هذه الدولة وما يرجون منه كل الخير هو نسبهم الهاشمي، لذلك كان هؤلاء الامراء يسلكون نهج اجدادهم في اعطاء صورة لتلك العهود التي يروجونها بوجودهم. فعندما تولى علي بن حمود الملقب بالناصر لدين الله أخذ الحكم بقوة وساس الناس بالعدل حتى نقلت في ذلك الاخبار العجيبة، ووجد الناس في كنفه الامن والطمأنينة وقد قصده الشاعر احمد بن عبد المالك ابن شهيد وقال وهو يودع قرطبة ملتجئا الى مالقة:

عليكـم بـداري فـاهـدمـوهـا دعـائمـا ... ففـي الارض بنـاؤون لـي ودعـائـم
اذا هشمـت حقـي اميـة عنـدهـا ... فهـاتـا علـى ظهـر المحجـة هـاشـم

وطبعا كان كباقي اسرته متشيعا. ونستطيع ان تستدل من الاوصاف التي وسم بها ان الافكار الشيعية كانت تروج بالاندلس آنذاك، فقد كان ذا ولع بالامداح النبوية، فكثر هذا الفن في عهده وشاع في الاندلس منذ ذلك الحين.

وكان يجزل العطاء لشعراء الامداح النبوية، وقصده الشعراء المتشيعون، فهذا عبادة بن ماء السماء كان معروفا بالتشيع يمدحه ويثبت احقيته في الامامة ويهيب بالناس الى طاعته. يقول:

ابـوكـم علـي كـان بـالشـرق بـدء مـا ... ورثتـم وذا بـالغـرب ايضـا سميـه
فصلـوا عليـه اجمعـون وسلمـوا ... لـه الامـر اذ ولاه فيكـم وليـه

ويصف ابو عبد الله الرعيني القرطبي عليا هذا بالامام فيقول:

سقـى منبـت اللـذات منهـا ابـن هـاشـم ... اذا انهملـت مـن راحتيـه الغمـائـم
امـام، امـام الـديـن حـد حسـامـه ... طـريـر ومنـه فـي يـد الله قـائـم

وقد قيلت في رثاء علي بن حمود احدى الروائع من غرر الشعر الشيعي لابي عمر احمد بن دراج القسطلي ابدع فيها واجاد فاستنزعت من ابي الحسن علي ابن بسام في كتابه الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة اطراء جميلا واعترافا جعلها في قمة الشعر الشيعي فقال عنها: «وهذه القصيدة له طويلة، وهي من الهاشميات الغر... لو قرعت سمع دعبل بن علي الخزاعي، والكميت بن زيد الاسدي لامسكا عن القول وبرءا اليها من القول والحول، بل لو رآها السيد الحميري وكثير الخزاعي لاقاماها بينة على الدعوى، ولتلقياها بشارة على زعمهما

بخروج الخيل من رضوى»[١].

وتبدو هذه القصيدة ببكاء شجي، بكاء تجهش به قلوب الشيعة في كل مكان ويتردد معناه في الشعر الفارسي، مستوحى من حمرة شمس الاصيل.

يقول:

لعلك يا شمس عند الاصيل ... شجيت لشجو الغريب الذليل
كوني شفيعي الى ابن الشفيع ... فكوني رسولي الى ابن الرسول

ثم يصف الواقعة الاليمة التي حلت بآل البيت فيقول:

تهاوت بهم مصقعات الرواعد ... في مدجنات الضحى والاصيل
بوارق ظلماء ظلم قبيح ... دمى من حمى او دما من قتيل
فاذهل مرضعة عن رضيع ... وانسى الحمائم ذكر الهديل

ويصف فيها القاسم بن حمود ونسبه فيقول:

لعل عواقبه ان تنم ... فتهدي الغريب سواء السبيل
الى الهاشمي الى الطالبي ... الى الفاطمي العطوف الوصول
الى ابن الوصي الى ابن النبي ... الى ابن الذبيح الى ابن الخليل

وهذه القصيدة طويلة تنيف على سبعين بيتا[٢] كلها ذات نفس واحد الى آخرها وقد ختمها مؤكدا مقام آل البيت واحفادهم بني حمود، وامامتهم المدعمة بالكتاب وبالمنطق فيقول:

فانتم هداة حياة وموت ... وانتم ائمة فعل وقيل
وسادات من حل جنات عدن ... جميع شبابهم والكهول
وانتم خلائق دنيا ودين ... بحكم الكتاب وحكم العقول

اما ابن علي ابن حمود وهو يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمعتلي بالله فقد زاد على من سبقه من بني حمود بميزة رفعته مقاما سنيا تلك هي كرم الولادة، فامه هي بنت محمد بن الامير حسن بن القاسم، فهو اذن هاشمي الابوين. وقل ان اجتمع ذلك لاحد من خلائف الاسلام الا ثلاثة من ابناء القرشيات كان هو مكمل اربعتهم. اولهم جدهم الاعلى سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وثانيهم ابنه سيدنا الحسن والثالث هو الامين محمد بن هارون وقد زاد الى هذا الشرف ولوعه بتهذيب النفس والتخلق بالفتوة شان جده(الفتى) فكان شغوفا بالفروسية وركض الخيل والخروج للقنص.

لقد قصد الشعراء كما اشرنا فيما سلف بني حمود ينثرون في مدحهم درر الشعر. واذا كان في عمل هؤلاء الشعراء ما يعبر عن عصرهم لانهم لسان المجتمعات في مختلف العصور، فاننا نجد ذلك ان اغفلنا جانب التقرب في مديحهم حيث ان شعرهم يحمل نزعة روحية ورسالة عقائدية تنم عن الايمان باهل البيت ومذهب اشياعهم في امامتهم وعصمتهم وحقيقتهم التي قال عنها احدهم: انها قبس من نور الله، بل اننا لنجد من بينهم بعض الشعراء ممن عرفوا بالتشيع.

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة. ابن بسام. ج١ ص٧٠.
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي. تحقيق الدكتور محمود مكي. ص٧٥ـ ٨١.

ومن ذلك نجد قصيدة طويلة قالها ابو زيد عبد الرحمن بن مقانا الفندقي الاشبوني في ادريس بن يحيى بن حمود الملقب بالعالي (٤٣٤ ـ ٤٣٨) وكان معروفا بالخير والعدل ننقل منها هذه الابيات:

يـا بنـي أحمـد يـا خيـر الـورى ... لابيكـم كـان وفـد المسلميـن
نـزل الـوحـي فـاجتبـى ... فـي الـدجـى فـوقهـم الـروح الاميـن
انظـرونـا نقتبـس مـن نـوركـم ... انـه مـن نـور رب العـالميـن[1]

هكذا عاشَ جزء كبير من الاندلس احدى فترات تاريخه في مطلع القرن الخامس، وظل تحت آل البيت المتشيعون يتبادل السلطة فيه الابناء والاخوة وابناء الاعمام من بني حمود طيلة ثمان وخمسين سنة[2] وهم يحاولون نشر الرخاء والاخاء واقامة العدل حتى نجد هذه الصفة تلزم سيرة اكثر ملوك هذه الدولة فيما ذكر في شأنهم، وحتى قال الشاعر ابن مقانا في ذلك:

خلقـوا مـن مـاء عـدل وتقـى ... وجميـع النـاس مـن مـاء وطيـن

وحتى ان خمسة منهم قد لقبوا انفسهم بالهداية:، وفي ذلك احد مظاهر نزعتهم الشيعية.

ومرت هذه الدولة الهاشمية كما مرت سابقتها يكتنف الغموض امر الدعوة الشيعية في ايامها ومدى اثره في المجتمع الذي مارست فيه الحكم. ونحن لا يمكننا ان نقتنع باقتصار تأثيرهم على من حولهم من الشعراء فقط وعدم وجود صدى لهذه الدعوة بين مختلف الطبقات من الناس. ومن حسن حظنا هذه المرة أن احد المفكرين في القرن الثامن الهجري لسان الدين ابن الخطيب سعفنا باشارة ذات اهمية كبرى. والفضل في ذلك يعود الى احدى النسخ الخطية الفريدة من مؤلفه التاريخي اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام التي حفظتها لنا خزانة جامعة القرويين بمدينة فاس من عاديات الزمن[3] وبهذه الاشارة تنحل العقدة المستعصية وينكشف لنا ما كان غامضا من قبل مما اغفل الحديث عنه المؤرخون مما كان يجري في الاندلس من اثر التشيع. ذلك ان ابن الخطيب عند حديثه عن دولة يزيد بن معاوية انتقل به الحديث الى ذكر عادات الاندلسيين واهل المغرب. وقد افادنا عظيم الفائدة حيث وصف احدى هذه المراسيم وانشاد المراثي وصفا حيا شيقا حتى ليخيل اننا نرى احياء هذه الذكرى في بلد شيعي. وذكر ان هذه المراثي كانت تسمى الحسينية وان المحافظة عليها بقيت مما قبل تاريخ عهد ابن الخطيب الى ايامه. ونبادر الآن الى نقل هذا الوصف على لسان صاحبه:[4]

«ولـم يـزل الحـزن متصـلا علـى الحسيـن، والمـآتـم قـائمـة فـي البـلاد يجتمـع لهـا النـاس ويختلفون لذلك ليلة يوم قتل منه بعد الامان من نكير دول قتلته ولاسيمابشرق الاندلس، فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من اهل المشرق(يعني الاندلس) يقيمون رسم الجنازة حتى في شكل مـن الثيـاب يستخبي خلـف سترة فـي بعـض البيـت وتحتفـل الاطعمـة والشمـوع ويجلـب القـراء

(١) انظر رايات المبرزين وشارات المميزين. ابن سعيد. ص٣٣ـ٣٤.
(٢) اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام. لسان الدين ابن الخطيب. ص١٢٢.
(٣) يعود الفضل في اكتشاف هذه النسخة الفريدة من هذا الكتاب واطلاعنا عليها الى العلامة السيد العابد الفاسي مدير خزانة جامعة القرويين.
(٤) اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاسلام. ابن الخطيب. نسخة خطية ص٣٦و٣٨.

المحسنون ويوقد البخور ويتغنى بالمراثي الحسنة».

وفي عهد ابن الخطيب كان ما يزال لهذه المراثي شأن ايضا، فانه في سياق حديثه السابق زادنا تفصيلا وبيانا عن الحسينية وطقوسها فقال:

«والحسينية التي يستعملها الى اليوم المستمعون فيلوون لها العمائم الملونة ويبدلون الاثواب في الرقص كأنهم يشقون الاعلى عن الاسفل بقية من هذا لم تنقطع بعد وان ضعفت ومهما قيل الحسينية او الصفة لم يدر اليوم اصلها».

وفي المغرب اليوم ما يزال أولئك المسمعون الذين اشار اليهم ابن الخطيب يعرفون بهذا الاسم وينشدون، وكثرت في انشادهم على الاخص الامداح النبوية. كما ان الاندلسية الشائعة اليوم في بلاد المغرب تشتمل في اكثرها على الامداح النبوية ايضا.

كما افادنا ابن الخطيب بنقله نموذجا لهذه المراثي مدى عناية الشعراء بهذا الموضوع وعرفنا باحد شعراء الشيعة في الاندلس الذي اشتهر برثاء سيدنا الحسين، وهو ابو البحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي (٥٦١ـ٥٩٨).

وهذه القصيدة كانت مشهورة ينشدها المسمعون وهي كما يلي:

سلام كازهار الربى يتنسم ... على منزل منه الهدى يتعلم
على مصرع للفاطميين غيبت ... لاوجههم فيه بدور وأنجم
على مشهد لو كنت حاضر أهله ... لعاينت اعضاء النبي تقسم
على كربلا لا خلف الغيث كربلا ... والا فان الدمع اندى واكرم
مصارع ضجت يثرب لمصابها ... ونـاح عليهن الحطيم وزمزم
ومكة والاستار والركن والصفا ... وموقف جمع والمقام المعظم
وبالحجر الملثوم عنوان حسرة ... ألست تراه وهو أسود أسحم
وروضة مولانا النبي محمد ... تبدى عليه الثكل يوم تخرموا
ومنبره العلوي للجذع أعولا ... عليهم عويلا بالضمائر يفهم
ولو قدرت تلك الجمادات قدرهم ... لدك حراء واستطير يلملم
وما قدر ما تبكي البلاد واهلها ... لآل رسول الله والرزء اعظم
لو ان رسول الله يحيى بعيدهم ... رأى ابن زياد امه كيف تعقم
واقبلت الزهراء قدس تربها ... تنادي اباها والمدامع تسجم
تقول ابي هم غادروا ابني نهبة ... كما صاغه قيس وما مج ارقم
سقوا حسنا للسم كأسا روية ... ولم يقرعوا سنا ولم يتندموا
وهم قطعوا رأس الحسين بكربلا ... كأنهم قد احسنوا حين اجرموا
فخذ منهم ثأرى وسكن جوانحا ... واجفان عين تستطير وتسجم
ابي، وانتصر للسبط واذكر مصابه ... وغلته والنهر ريان مفعم
وأسر بنيه بعده واحتمالهم ... كأنهم من نسل كسرى تغنموا
ونقر يزيد في الثنايا التي اغتدت ... ثناياك فيها ايها النور تلثم

اذا صدق الصديق حملة مقدم ... وما فارق الفاروق ماض ولهذم
وعاث بهم عثمان عيث ابن صرة ... واعلى على كعب من كان يهضم
وجب لهم جبريل انسك غارب ... من الغي لايعلى ولايتسنم
ولكنها اقدار رب بها قضى ... فلا يتخطى النقض ما هو يبرم
قضى الله ان يقضي عليهم عبيدهم ... لتشقى بهم تلك العبيد وتنقم
هم القوم، اما سعيهم فمخيب ... مضاع واما دارهم فجهنم
فيا ايها المغرور والله غاضب ... لبنت رسول الله ابن تيم
الا طرب يقلى الا حزن يصطفي ... الا ادمع تجري الا قلب يضرم
قفوا ساعدونا بالدموع فانها ... لتصغر في حق الحسين ويعظم
ومهما سمعتم في الحسين مراثيا ... تعبر عن محض الاسى وتترجم
فمدوا اكفا مسعدين بدعوة ... وصلوا على جسم الحسين وسلموا[1]

ونتلمس هذه الحركة فيما بعد عصر مبدع هذه القصيدة الحسينية فنعثر على اثر آخر للفكر الشيعي حيث نلتقي باحد ادباء الاندلس في النصف الاول من القرن السابع الهجري، هو القاضي ابو عبدالله محمد ابن عبد الله القضاعي البلنسي (المقتول في ٢٠ محرم سنة ٦٥٨ هـ) ونقف على اسم كتابين من مؤلفاته العديدة موضوعهما هو رثاء سيدنا الحسين. اولهما: «اللجين في رثاء الحسين» ولايعرف اليوم أثر لهذا الكتاب غير اسمه، وثانيهما: «درر السمط في اخبار السبط». وكان كل ما بقي من هذا الكتاب هو ما نقله المقري في كتابه نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. وقد اعترف المقري بأنه اغفل نقل بعض الفقرات من الكتاب مما «يشم منه رائحة التشيع»[2] ثم انه اكتفى بنقل جزء من الباقي فقط. ونضيف هذا القول الواضح والشهادة الصريحة الى ما اشرنا اليه سابقا عن علة سكوت كتب التاريخ وغيرها عن الاشارة الى آثار التشيع في المغرب والاندلس. ولم يحل عمل المقري مع ذلك، من اعطائه حكما موضوعيا عن هذا الكتاب، فقال: «وهو كتاب غاية في بابه». وقد اكتشفت هذا الكتاب اخيرا برمته، واستطعنا ان ندرك عن كثب اهميته البالغة في هذا الباب[3].

ومهما اطلنا في التنويه بهذا الكتاب واسلوبه الجميل وبيانه الرائع وتأثيره البالغ في سامعيه بوصفه لتلك الحوادث المؤلمة من تاريخ الاسلام، فانه لايكفي لبيان منزلته في الادب الشيعي. وهو على كل حال يقدم لنا الدليل القاطع على رواج حركة التشيع في الاندلس في هذا العصر. ولكي نأخذ فكرة واضحة عن ذلك انقل بعض الفقرات من هذا الكتاب مما لا يبقى معه شك بتشييع صاحبه.

(١) اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام. ابن الخطيب. نسخة خطية ص٣٧ـ ٣٨.
(٢) نفح الطيب. المقري. ج٤ ص٥٠٦.
(٣) نشرنا هذا الكتاب في العدد الثالث عشر من الموسم ص ١٥٥ـ٢١٣ بتحقيق د. عبد السلام هراس وسعيد أحمد أعراب فراجعه. انظر أيضاً البحث الموسوم بـ (التشيع في الأندلس) المنشور في الموسم العدد (١٦). المحرر.

بدأ بتحية آل البيت والشهادة بحبهم: «اولئك السادة احيي وافدي، والشهادة بحبهم اوفى وأودى»، ومن يكتمها فانه آثم قلبه.

ثم خاطبهم وذكر نقاء حقيقتهم النبوية، وعاقبة امرهم:

«يا لك انجم هداية، لا تصلح الشمس لهم عن آية. كفلتهم في جحرها النبوة، فلله تلك النبوة بعضها من بعض. سرعان ما بلي منهم الجديدوغري بهم الحديد، نسفت اجبلهم الشامخة، وشدخت غررهم الشادخة، فطارت بطررهم الارواح وراحت عن جسومهم الارواح، بعد ان فعلوا الافاعيل، وعيل صبر اقتالهم وصبرهم ما عيل».

ويتحسر عليهم ويعرض باعدائهم فيقول:

«اشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القوي، قعد بالحسين حقه وقام بيزيد باطله واخلاقه، حضر موقد القضاء الخصمان وعنت الوجوه للرحمن، جاء الحق وزهق الباطل، ان الامامة لم تكن للئيم ما تحت العمامة. من سبط هند وابنها دون البتول ولاكرامة، يسر ابن فاطمة للدين يسميه وابن ميسون للدنيا تستهويه، اعملوا فكل مسير لما خلق له، فاما هذا فتحرج وتأثم، واما ذاك فتلجلج وتلعثم، مشى الواحد الى نور يسعى بين يديه، ومشى الثاني الى ضوء نار لايغرو ما لديه. يا ويح من وازي الكتاب فقال والدنيا امامه: كانت بنو حرب فراعنة، فذهب ابن بنت رسول الله ليخرجهم من العراق فانعكس الروم وحورب ولافارس والروم».

وعندما يصف الحادث المفجع لقتل سبط رسول الله نحس ان قلبه يكاد ينفطر من الاسى فيقول:

«عاشر محرم ابيحت الحرمات، وافيضت على النور الظلمات، فتفاقم الحادث وحمل على الطيبين الاخابث وضرب السبط على عاتقه ويسراه، وما أجرأ من اسال دمه واجراه، ثم قتل بعقب كلكم ذبحا وغودر حتى العاديات ضبحا» ويضيف مشيرا في الاخير الى ان هذه الداهية كانت بها النوادب، ولاتبلغ معشارها النوائب. طاشت لها النهى وطارت، وأقبلت شهب الدجى وغارت.

لولاها ما دخل ذل على العرب ولاالف صيد الصقر بالخرب ونسف النبع بالغرب. فانظر الى ذوي الاستبصار خضع الرقاب نواكس الابصار.

وان قتيل الطف من آل هاشم اذل رقاب المسلمين فذلت

وفي الاخير يعود الى تأكيد الايمان بهم والتعلق بحبهم وتفضيلهم على اعدائهم يقول:

ما عذر الاموية وابنائها، في قتل العلوية وافنائها، اهم يقسمون رحمة ربك؟ كم دليل في غاية الوضوح، على انهم كسفينة نوح من ركب فيها نجى ومن تخلف عنها غرق، ثم يحسبهم آل الطليق ويطردهم آل الطريق، وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد. نساؤهم أيامن امية، وسماؤهم ارض بني سمية.

من عصبة ضاعت دماء محمد وبنيه بين يزيدها وزيادها

كان الحسين يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً، ويزيد يتلف العمر تبريحاً وعدواناً عمرك الله كيف يلتقيان».

وقد بقي لهذا الكتاب ونزعته الشيعية صدىً انتقل الى المغرب وظل بها زمنا طويلا فبعد ثلاثة قرون من تأليفه نعثر على شرح له لاحد المغاربة هو الفقيه الاديب سعيد الماغومي بوجمعة المولود سنة ٩٥٠ هـ ويعتبر هذا الشرح. اليوم من المفقودات. غير ان ابن القاضي يخبرنا في كتابه درة الحجال[١] انه كان موجودا في خزانة المنصور السعدي بمدينة مراكش. وتظهر عناية ملوك المغرب بمثل هذه التآليف، فيما قيل من ان شارح هذا الكتاب اخذ مكافأة على تأليفه وزنه ذهبا.

هكذا عرف المغرب هذه العقيدة خلال تاريخه، وقد استمر على اتصال بها الى اليوم فيما نشاهده من مظاهر اجتماعية وثيقة بحياته العائلية حتى تغلغلت في روحيته، وان اقوى تلك الصلات التي ستظل تلازم عقيدته الى آخر الدهر هي الايمان بالامام المهدي وخروجه في آخر الزمان بأمر الدين فيحيي الشريعة ويملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما. والمغاربة يتعلقون بهذه العقيدة بشدة، غيرة منهم على الدين حتى لنرى اليوم من ضاقت حاله واشتد عليه الامر، ويأس من الجور وفساد الاعتقاد والاعمال في المجتمع يصعد زفرة من الاعماق داعيا الله ان يفرج الكرب بخروج صاحب «السيف». والآراء متضاربة عند العامة عن مكان ظهوره، وقد تعلق الناس خاصة بفكرة خروجه في قلب مدينة فاس من وسط مزار المولى ادريس الثاني ابن منشىء الدولة الادريسية الهاشمية. وذلك يرمز الى ربط هذه العقيدة بآل البيت. ومن الناس من كان يعتقد ظهوره بالسوس الاقصى، وفي رباط ماسة في الصحراء المغربية، ولكي نرى كيف ان هذه العقيدة كانت شائعة بين الناس في المغرب والى اي حد تمسك بها المغاربة نذكر انها كانت الدعامة الاساسية لقيام دولة بربرية حكمت المغرب في القرن السادس الهجري، تلك هي دولة الموحدين(٥١٥ـ٦٢١هـ).

فمؤسس هذه الدولة هو محمد المهدي بن تومرت شريف يتصل نسبة بسيدنا الحسن بن سيدنا الحسن بن سيدنا علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قام بالمغرب سنة ٥١٥هـ وكان مبدؤه الاساسي هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان تقيا ذا ورع وصلاح فذاع اسمه وطار صيته وتعلق به الناس ورأوا الخلاص على يديه. وادعى انه هو محمد بن عبد الله المهدي المعصوم، فبايعوه على ذلك. وكتب لاتباعه كتبا منها: اعز ما يطلب وعقائد في اصول الدين. وكان فيما يظهر ينزع الى التشيع[٢]. ثم انطلق ينشر دعوته بالسيف وارسل اول جيوشه لمحاربة دولة المرابطين بمدينة مراكش سنة ٥١٧ هـ تحت شعار«الاقرار بالامام المهدي المعصوم»[٣]. وقد قال فيه احد الشعراء قصيدة طويلة مطبقا اوصاف الامام المهدي التي وردت في الاحاديث عليه ومدعيا انه هو المهدي المنتظر؟ انشدها على قبره. قال فيها:

سلام على قبر الامام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد

(١) درة الحجال في اسماء الرجال. ابن القاضي.

(٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب. عبد الواحد المراكشي ص١١٢و١١٣. والاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى. الناصري ج١ ص١٤٠.

(٣) المعجب في تلخيص اخبار المغرب. المراكشي ص١١٥.

اتتنا به البشرى بان يملأ الدنا بقسط وعدل في الانام مخلد
ويفتتح الامصار شرقا ومغربا ويملك عربا من مغير ومنجد
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا فذلكم المهدي بالله يهتدي

وقد كان لهذه الدولة الموحدية التي انشأها المهدي بن تومرت شأن عظيم في تاريخ المغرب، وازدهرت في ايامها العلوم والآداب والفنون والعمران.

واتخذت المهدوية مظهرا آخر في الفكر المغربي عندما امتزجت بالروح الصوفية فتجلت في القرن السابع الهجري في نظريات عرفانية، ومشاهدات روحانية، ولطائف ربانية. ذلك عند الشيخ الاكبر محيي الدين ابن العربي الحاتمي. فقد ذكر ان هذا الامر هو الكنز الخفي بالبحر الغربي[1]. ووحد بين المشرق والمغرب حيث يكون طلوعه. وفي ذلك يقول الشيخ الاكبر: «فصل ـ ولما كان فتح المدينة التي هيأتها هكذا بالتكبير والتهليل، وفي مقدمة العسكر جبريل، وقد عطف اللواء للمشرق نحو بلاد المشرق. ورياح المغرب تزعجه، وبشائر الفتح تلهجه والملائكة به حافون، وعليه ملتفون وامامه مصطفون» ثم يدعو الشيخ الاكبر الى التشبث بالامام، ومتابعته، والتحفز لتلك الرحلة الكبرى فيقول:

«فاذا اخذت في الرحيل، فاطو بساطك ايها الخليل، وسر معه بما معك من كثير او قليل، فان لم يكن عندك قوة مال ولاطاقة لك بحمل العيال فسر الى معدن الامام، ليبحثوا لك من المال ان استطعت ان تحمله، وذلك ايضا له علامة مع جلى الجبهة وقنى الانف، وسيرته في الملك بين اللين والعنف، فاصحب الركب المحفوظ المصان الملحوظ، فانه لاخير فيما تبقى بعده، ولكن الخير امامه وعنده».

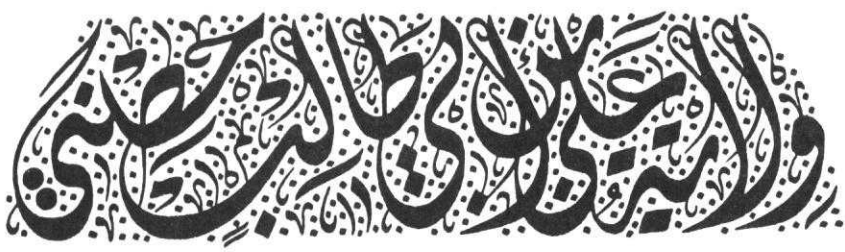

(١) عنقاء مغرب في ختم الاولياء وشمس المغرب. الشيخ محيي الدين ابن العربي. ص٦٧و٦٩و٧٠.